

أول كتاب ومكتبة في تاريخ الإسلام

غلامرضا فدائي عراقي

رغم ما للكتاب من قدسية وقيمة في جميع الأديان السماوية غير أن الإسلام يوليه أهمية خاصة وكبيرة. هذا بالإضافة إلى أن الكتاب هو معجزة الرسول الأكرم (ص)، كما يعتبر معجزة هذا الدين الخالدة لدى المسلمين، لذلك ورد في المقال روايات عديدة حول منزله الكتاب والكتابة. ومن المعلوم أن الكتابة في العصور القديمة لم تكن تنتشر كالיום ولم يكن المتعلمون والكتاب يشكلان طبقة كبيرة في المجتمع، رغم ذلك فقد كان المسلمون يجدون أنفسهم بحاجة ماسة إلى كتابة وضبط ما يصلهم من رسول الإسلام (ص)، وكانوا يبذلون مساع كبيرة لتطوير الخط وحفظ القرآن وأحاديث الرسول والأئمة المعصومين وضبطه، والحصول على ما لدى الأقوام الأخرى من تراث علمي. ولهذا فقد ازداد الإهتمام في عهد الخلفاء ولا سيما العباسيون بعلوم البلاد الأخرى وخاصة اليونانيين التي تمخض عنها نهضة في الترجمة، حيث جعلهم واسطة لنقل علوم اليونان إلى عالم أوروبا اليوم. ويورد الكاتب أدلة دامغة تقضي بإزالة ما توهم عليه بعض المستشرقين على أن النبي منع المسلمين عن الكتابة. وفي المقال أيضاً إشارة إلى كتابة أول كتاب وتأسيس أول مكتبة في الإسلام، ويورد أخيراً قائمة عن المكتبات وعدد ونوع الكتب التي فيها.

أهمية الكتاب والكتابة في الإسلام

نظراً للأهمية الخاصة التي يوليها الإسلام للعلم والمعرفة يرى وأن الفوز والسعادة من نصيب العلماء فمن البديهي أن يولى الكتاب غاية الأهمية أيضاً باعتباره وسيلة قيمة لنشر العلم وازدهاره. هذا بالإضافة إلى أن الكتاب هو معجزة الرسول الأكرم (ص) ورغم ما للكتاب من قدسية وقيمة في جميع الأديان السماوية غير أن له في الإسلام ميزة خاصة، كما

يعتبر معجزة هذا الدين الخالدة لدى المسلمين. وقد وردت كلمة «الكتاب» مرّات في القرآن، وتعرف سورة «الحمد» بفاتحة الكتاب. كما أن السورة الثانية في القرآن تبدأ بالإشارة إلى الكتاب^(١). ونشير فيما يلي إلى عدد من الروايات حول منزلة الكتاب والكتابة: يقول الإمام الصادق (ع) «احتفظوا بكتبكم، انكم سوف تحتاجون إليها»^(٢).

عليها، وكان عدد من الأصحاب وكتب الوحي يعرضون ما يكتبونه على الرسول (ص) مرّات عديدة، وكان الرسول إما أن يقرأها أو يصححها لهم^(١١).

وكلما ابتعد المسلمون عن عصر الرسول (ص) وجدوا أنفسهم أكثر حاجة إلى كتابة الحوادث وضبطها. وكانوا يبذلون مساع كبيرة لتطوير الخط وحفظ القرآن وضبطه واحاديث الرسول والأئمة المعصومين، والحصول على ما لدى الأقوام الأخرى من تراث علمي.

ولما كان رسول الإسلام (ص) يدعو الناس إلى طلب العلم ولو في الصين [وهي كما يبدو كانت تعتبر أقصى نقطة في العالم^(١٢)]، أو أنه كان يرى طلب العلم واسعاً بحيث يكون أوله في المهد وآخره في اللحد (اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد)، كان من الطبيعي أن يسعى المسلمون لطلبه ولو كان في السماء (لو كان العلم في السماء لطلبه رجال من الفرس)، ولهذا فقد ازداد الاهتمام في عهد الخلفاء ولاسيما الخلفاء العباسيون بعلوم البلاد الأخرى وبخاصة اليونانيين والتي كان يطلق عليها اسم علوم الأوائل، بعد بدء النهضة في الترجمة.

وقد ذكر جورجيس عواد مؤلف كتاب «خزائن الكتب القديمة في العراق» قصة طريفة في هذا الخصوص يطيب سماعها:

قال في ترجمة أرسطاطاليس: إن المأمون راسل ملك الروم وكان قد استطال عليه وأزل دين الكفر، وطلب منه كتب الحكمة من كلام أرسطاطاليس فطلبها ملك الروم فلم يجد لها بيلاده أثراً، فاغتم لذلك، وقال: يطلب مني ملك المسلمين علم سلفي من اليونان فلا أجده؟ أي عذر يكون لي؟ أم أي قيمة تبقى لهذه الفرقة الرومية عند المسلمين؟ وأخذ بالسؤال والبحث، فحضر إليه أحد الرهبان المنقطعين في بعض الأديرة النازحة عن القسطنطينية، وقال له: عندي علم ما تريد! فقال له: أدركني، فقال: إن البيت الفلاني في موضع كذا الذي يقفل كل ملك عليه قفلاً، إذا ما ملك مافيه، قال: فيه على ما يقال مال الملوك المتقدمين، وكل ملك يجيء يقفل عليه حتى لا يقال قد احتاج إلى مافيه لسوء تدبيره، ففتحه فقال له الراهب: ليس

وروي أنس عن رسول الله (ص): «المؤمن إذا مات وترك ورقة واحدة عليها علم، تكون تلك الورقة يوم القيامة سترًا فيما بينه وبين النار واعطاه الله - تبارك وتعالى - بكل حرف مكتوب عليها مدينة أوسع من الدنيا سبع مرّات»^(٣).

وروي جريح عن عطا عن عبد الله عمر أنه قال: قلت لرسول الله (ص): أقيّد العلم؟ قال: نعم، قيل: وما تقييده؟ قال: كتابته^(٤).

وروي عمرو بن شعيب عن أبيه وهو عن جده قال: قلت لرسول الله (ص): اكتب كل ما أسمع منك؟ قال: نعم، قلت: في الرضا والغضب، قال: نعم، فإني لا أقول في ذلك كله إلّا الحق^(٥).

وقال الإمام الصادق (ع): أكتب وبثّ علمك في إخوانك، فإن متّ فورث كتبك بنيك، فإنه يأتي على الناس زمان هرج ما يأنسون فيه إلّا بكتبهم^(٦).

وروي أن رجلاً من الأنصار يأتي النبي (ص) فيسمع منه الحديث فيعجبه، ولا يحفظه، فشكى ذلك إلى النبي (ص)، فقال له رسول الله (ص): استعن بيمينك، وأو ما ييده أي خط^(٧).

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله (ع) يقول: اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتّى تكتبوا^(٨).

وعنه عليه السلام: القلب يتكل على الكتابة^(٩).

ورغم أن الكتابة في العصور القديمة لم تكن تنتشر كالיום ولم يكن المتعلمون والكتاب يشكلان طبقة كبيرة في المجتمع، وكان الذين يعرفون الكتابة يعدون على الأصابع، كما لم تكن العلامات والتنقيط قد ظهرت أو تكاملت بعد^(١٠)، غير أن هذا لم يحل دون الاهتمام بالكتابة، فقد كان المسلمون يجدون أنفسهم بحاجة إلى كتابة وضبط ما يصلهم من رسول الإسلام (ص)، لا سيّما فيما يتعلق باعتقاداتهم الدينية القائمة على حفظ القرآن من حوادث الدهر. وكان الرسول الأكرم (ص) يقرأ على الكتاب ما يوحى إليه من الآيات، وكان أولئك يكتبونها كما هو مفروض عليهم وبشكل مرتب على الجلد أو الخشب أو العظم وكل ما لديهم. ويسعون للمحافظة

الأمر كذلك وإنما في ذلك الموضع هيكل كانت اليونان تتعبد به قبل استقرار ملة المسيح. فلما تقررت ملته بهذه الجهات في أيام قسطنطين بن الانه جمعت كتب الحكمة من أيدي الناس، وجعلت في ذلك البيت، وأغلق بابه، وقفل عليه الملوك أقفالاً كما سمعت. فجمع الملك مقدمي دولته، وعرفهم الأمر واستشارهم في فتح البيت، فأشاروا بذلك، فاستشار الراهب في تسييرها إذا وجدت إلى بلد الإسلام، وهل عليه في ذلك خطر في الدنيا أو أثم في الأخرى، فقال الراهب: سيرها فإنك تثاب عليه، فإنها ما دخلت في ملة إلا وزلزلت قواعدها. فسار إلى البيت وفتحه ووجد الأمر فيه كما ذكر الراهب، ووجدوا فيه كتباً كثيرة، فأخذوا من جانبها بغير علم ولا فحص خمسة أحمال وسيرت إلى المأمون فأحضر لها المأمون المترجمين، فاستخرجوها من الرومية إلى العربية ولما سيرت الكتب إلى المأمون جاء بعضها تاماً وبعضها ناقصاً، فالناقص منها ناقص إلى اليوم لم يجد احد تمامه^(١٣)، وارسلت إلى مكتبة المأمون خزانة الحكمة.

ورغم أن المسلمين بما كانوا عليه من تربية اسلامية يولون العلم والمعرفة والكتاب والكتابة أهمية كبيرة جداً. بحيث انقذوا العالم من الجهل، وأهدوا تراثهم العلمي الإسلامي الكبير إلى البشرية، وكانوا واسطة لنقل علوم اليونان إلى عالم أوروبا اليوم. ولكن مما يؤسف له أن أكثر المستشرقين تجاهلوا دور المسلمين الكبير والقيّم هذا، وحينما يدونون التاريخ، يبدأون من اليونان، ويقفزون عن فترة فراغ القرون الوسطى، ليصلوا إلى النهضة الأوروبية الحديثة دون أن يتطرقوا إلى أهمية دور المسلمين، أو أنهم يكتفون بذكر عدد من الجمل حول ذلك.

يقول الأستاذ زرين كوب في كتابه «تاريخ در ترازو»: «ان الذي يمنع الأوروبيين من ابداء نظرة صحيحة عن الحوادث التاريخية هو التصور الأوربي لديهم عن التاريخ وتاريخ العالم وأنه هو تاريخ أوروبا فقط»^(١٤).

ازالة خطأ
يبدو من المناسب هنا ازالة خطأ وهو: هل أن رسول

الإسلام الأعظم منع المسلمين عن الكتابة؟ يقول حاجي خليفة في كتابه القيم «كشف الظنون»: «واعلم أن الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لخلوص عقيدتهم ببركة صحبة النبي (ص)، وقرب العهد إليه، ولقلة الاختلاف والواقعات، وتمكنهم من المراجعة إلى الثقات، كانوا مستغنين عن تدوين علم الشرائع والأحكام، حتى إن بعضهم كره كتابة العلم، واستدل بما روي عن أبي سعيد الخدري أنه استأذن النبي (صلى الله عليه وسلم) في كتابة العلم، فلم يأذن له، وروي عن ابن عباس أنه نهى عن الكتابة، وقال: إنما ضل من كان قبلكم بالكتابة. وجاء رجل إلى عبدالله بن عباس (رضى الله عنهما) فقال: إني كتبت كتاباً أريد أن أعرضه عليك، فلما عرضه عليه أخذه منه ومحاه بالماء. وقيل له: لما ذا فعلت، قال: لأنهم إذا كتبوا اعتمدوا على الكتابة وتركوا الحفظ فيعرض للكتاب عارض فيفوت علمهم، واستدل أيضاً بأن الكتاب مما يزيد وينقص ويغير، والذي حفظ لا يمكن تغييره، لأن الحافظ يتكلم بالعلم، والذي يخبر عن الكتابة يخبر بالظن والنظر»^(١٥).

ويذكر حول هذا الأمر دليل آخر، وهو كيلا يختلط ما يكتب بما كتب من القرآن، ولذلك فإن رسول الإسلام (ص) منع كتابة الحديث وغيره في عهده^(١٦).

ويبدو أن مثل هذا الكلام والأدلة تتعارض مع ما ذكر في القرآن الكريم، لأن الله تعالى يقول في أواخر سورة البقرة: «يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولأياب كاتب ان يكتب كما علمه الله، فليكتب، وليُمِلل الذي عليه الحق وليتق الله ربه...»^(١٧).

ففي الوقت الذي يؤكد القرآن الكريم على الكتابة في المسائل الدنيوية بهذا الشكل ويأمر فيها بالتقوى وأن الله علمكم القراءة، من الأولى أن يؤكد على المسائل الأخروية والأمور المهمة المتعلقة بالدين والدنيا والسعادة البشرية^(١٨).

ثانياً: قيل إن الرسول (ص) انتخب عدداً ليكونوا كتاباً للوحي وأمرهم بالكتابة مع أنهم كانوا قادرين على حفظ القرآن

ويرغبون رغبة شديدة في ذلك. وإضافة إلى ذلك فإن النبي (ص) طلب في الساعات الأخيرة من عمره أن يؤتى إليه بقلم ودواة ليكتب وصية لأمرته كي لاتضل من بعده^(١٩).

ثالثاً: يستدل من حديث ابن عباس أن من الممكن وقوع حوادث للكتاب تؤدي إلى ضياع العلم بدون حفظ، بينما ينبغي أن يقال عكس ذلك، إذ من الممكن أن تقع حوادث للعالم والحافظ أيضاً فيموت ويدفن علمه معه، وإمكانية وقوع هذا أكثر في الحقيقة^(٢٠).

رابعاً: إن كانت رواية ابن عباس صحيحة فهي تتعارض مع الروايات العديدة الأخرى التي وصلتنا عن طرق العامة والخاصة وأمر فيها بالكتابة ولا حاجة لإتباعها^(٢١).

خامساً: ليس ما يدل في رواية أبي سعيد الخدري على منع الكتابة، وعلى فرض صحتها، فهي تتعلق بزمان وحالة وشروط خاصة، ولا يمكن أن تكون عامة^(٢٢).

سادساً: يلاحظ أن صاحب كتاب كشف الظنون ينقض استدلاله مباشرة في الحديث الذي أورده في الفقرات التالية حيث يقول: «ولما انتشر الإسلام واتسعت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار وحدثت الفتن واختلفت الآراء وكثرت الفتاوي والرجوع إلى الكبرأ أخذوا في تدوين الحديث والفقه وعلوم القرآن واشتغلوا بالنظر والاستدلال والاجتهاد والاستنباط وتمهيد القواعد والأصول، وترتيب الأبواب والفصول وتكثير المسائل بأدلتها، وإيراد الشبهة بأجوبتها وتعيين الأوضاع والاصطلاحات وتبيين المذاهب والاختلافات، وكان ذلك مصلحة عظيمة وفكرة في الصواب مستقيمة فأروا ذلك مستحجاً بل واجباً لقضية الإيجاب المذكور مع قوله عليه الصلاة والسلام «العلم صيد والكتابة قيد، قيدوا رحمكم الله تعالى علومكم بالكتابة والحديث.»^(٢٣).

ويشير المؤلف المذكور في ذيل مادة علم الحديث إلى أهمية الكتابة فيقول «ولعمري إنها الأصل فإن الخاطر يغفل والقلم يحفظ»^(٢٤).

أول كتاب وأول مكتبة في الإسلام

للأوليات في كل فرع وموضوع وقع خاص على كل إنسان

ذي ذهن نقاد وباحث. ولذلك لرغبة الإنسان في معرفة أول من عمل عملاً، أو قال قولاً، أو سن سنة حسنة. وبعبارة أخرى، إن كان لمعرفة تاريخ الإنسان وماضيه، فائدة ولاشك أن له، فمن الطبيعي أن يكون للأوليات في كل موضوع وعمل منزلة خاصة. وقد كانت الأوليات دائماً ذات أهمية لأنها نقطة عطف وبداية لفصل جديد في تاريخ كل موضوع.

وبالإضافة إلى ذلك فإن الإهتمام بالأوليات هو في حد ذاته نوع من التقييم لكل موضوع وحفظ له، وقد روي أن «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة...»، ولذلك فإن معرفة الذين ساهموا بشكل من الأشكال في تكامل الحضارة الإنسانية وأضافوا بمساعيهم شيئاً مهماً إلى التراث الإنساني ذو أهمية وقيمة كبيرتين. ثم إن ذكر كل عمل وتدوينه باسم الشخص الحقيقي أو الحقوقي الذي كان قد أبدعه هو تشجيع على عمل الخير وتقدير له ولصاحبه. وأقل شكر يقدمه المجتمع البشري لواضعي أسس الخير والخيرات. وهل أهم في هذا الشأن وأكثر قيمة من الكتاب والمكتبات التي تلعب دوراً مهماً وعظيماً في بناء الحضارة الإنسانية.

أول كتاب في الإسلام وتاريخ ظهوره

لاشك في أننا حينما نتحدث عن ظهور أول كتاب، فإننا نشير إلى الكتب التي ألفها كبار رجال الإسلام. أكانت هذه الكتب موجودة الآن أم حال عليها تطاول الأزمان، وكانت مشهورة أو غير مشهورة، وذلك لأن الحديث يدور عن الأوليات، وهذا يوجب عدم تضييع حق أولئك الذين سبقوا في هذا المجال وتحملوا المشاق، والفضل للمقدم.

يقول مؤلف كشف الظنون في هذا الخصوص:

«واعلم أنه اختلف في أول من صنف، فقيل: الإمام عبد الملك بن عبدالعزيز بن جريح البصري المتوفى سنة خمس وخمسين ومائة، وقيل: أبو النصر سعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ست وخمسين ومائة، ذكرهما الخطيب البغدادي، وقيل ربيع بن صبيح المتوفى سنة ستين ومائة، قاله أبو محمد الرامهرمزي ثم صنف سفيان بن عيينه ومالك بن أنس بالمدينة وعبد الله بن وهب بمصر ومعمّر وعبدالرزاق باليمن وسفيان

أول كتاب ومكتبه في تاريخ الإسلام

٩٠ هـ هو أول كتاب شيعي، ويرى القاضي بدر الدين السبكي في كتابه «محاسن الوسائل في عدد الأوائل»: أن أول كتاب في تاريخ الشيعة هو كتاب سليم بن قيس الهلالي^(٣١).

وهنا لابد من الإشارة إلى مسألة ذات أهمية وهي: هل ينبغي أن يعتبر القرآن وجمعه أول كتاب، أو الأحاديث وجمعها، أو ما كتب أحياناً من تفسير أو تفاسير القرآن؟

ففي كلا الحالتين يبدو أن الإمام علي (ع) كان أول مدوّن للكتاب أيضاً وهنا يجدر ذكر رأي ثقة الإسلام التبريزي حول ذلك، فقد قال بعد بحث طويل ومفصل عن كلّ من الكتب التي دوّنت في عهد الرسول وبعده، ونقل روايات كبار رجال الشيعة والسنة في هذا الشأن:

«أقول وقد تحصل من جميع ذلك أن الكتب المصنفة في عهد النبي الأكرم (ص) كتاب علي (ع) والجامعة لم تكن جزءاً من كتاب علي، وكتاب الديات وكتاب الفرائض، إن لم يكونا جزءاً من كتاب علي (ع) أيضاً. والجفر إذا اعتبرناه من الكتب في الموضوع. وكتاب ابن حزم أي الكتاب الذي أرسله الرسول (ص) إليه. أما الكتب التي صنفت بعد النبي (ص): فهي مصحف فاطمة (ع) وكتاب سلمان وأبي ذر واصبغ بن نباته وكتاب أبي رافع وابنيه علي وعبيدة والذي جمعه أبو الأسود في النحو وكتاب سليم بن قيس وكتاب ميثم والصحيفة السجادية. وأما القرآن الكريم، فإذا اعتبرناه من المصنفات، فتأليفه بعد وفاة النبي (ص)؛ وإن كان المراد القرآن مطلقاً، فهو مما أُلّف في عصر النبي (ص) والقرآن الذي بين أيدينا فهو مما جمعه عثمان بعد وفاة النبي (ص)^(٣٢).

أول مكتبة في الإسلام

من الصعب في الواقع معرفة أول مكتبة افتتحت رسمياً في الإسلام أو بدأت بالعمل. وذلك لوجود مكتبات كثيرة في عصر الحضارة الإسلامية، منها العامة والخاصة والشخصية والتعليمية. وقد نال بعضها شهرة وعظمة كبيرتين. وربما أدت شهرة ومكانة بعض هذه المكتبات إلى التقليل من البحث حول الأوليات منها.

وقد كان الخلفاء العباسيون من أكبر المشجعين على تأسيس

الثوري ومحمد بن فضيل بن غزوان بالكوفة وحماد بن سلمه وروح بن عباد بالبصرة وهشيم بواسط وعبدالله بن المبارك بخراسان. وكان مطمح نظرهم في التدوين ضبط معاهد القرآن والحديث ومعانيهما ثم دونوا فيما هو كالوسيلة اليها^(٣٥).

ولما كان جل اهتمام المسلمين بعد القرآن جمع الأحاديث وضبطها لذلك فإن أول الكتب التي دونت كانت تتعلق بالحديث وآثاره المتعلقة به. وقال ابن الأثير في النهاية بعد كلام له في عدم احتياج الصحابة إلى التدوين في غريب الحديث لعلمهم باللغات: «ثم اختلط العجم فاحتاجوا إلى التدوين»^(٣٦).

ويقول صاحب كشف الظنون في ذيل مادة الحديث نقلاً عن بعض الكبار «إن أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريح وقيل موطأ مالك بن أنس، وقيل أول من صنف وبوب الربيع بن صبيح بالبصرة، ثم انتشر جمع الحديث وتدوينه وتسطيعه في الأجزاء والكتب...»^(٣٧).

ويقول ابن شهر آشوب في كتاب معالم العلماء «قال الغزالي أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريح في الآثار وحروف التفاسير عن مجاهد وعطاء بمكة، ثم كتاب مهمر بن راشد الصنعاني باليمن ثم كتاب الموطأ لمالك بن أنس ثم جامع سفيان الثوري بل الصحيح أن أول من صنف فيه أمير المؤمنين - عليه السلام - جمع كتاب الله (جل جلاله) ثم سلمان الفارسي ثم أبوذر الغفاري ثم أصبغ بن نباته ثم عبدالله بن أبي رافع، ثم الصحيفة الكاملة عن زين العابدين^(٣٨)».

وأضاف ثقة الإسلام التبريزي صاحب كتاب مرآة الكتب على ما أورده ابن شهر آشوب فقال: «لا بد هنا من ذكر الكتب التي هي أولى من الكتب التي ذكرها ابن شهر آشوب ومنها: كتاب علي - عليه السلام - وقد روى أنه كان باملاء رسول الله (ص) وخط علي (ع)^(٣٩)».

ويقول السيد علي أكبر غفاري «أول كتاب حديث كتب في تاريخ الإسلام هو كتاب الجامعة أو الصحيفة* التي كانت باملاء رسول الله (ص) وبخط علي عليه السلام^(٣٠)».

ويعتبر ابن النديم أن «كتاب سليم بن قيس المتوفى سنة

أول كتاب ومكتبة في تاريخ الإسلام

مع إعمار المساجد، ثم استمر في المدارس، لذلك يمكن القول: إن المكتبات ظهرت بشكل ما إلى جانب المساجد والمدارس منذ الفترة الأولى لتأسيسها.

«وكانت المكتبات على الأكثر في المساجد والمؤسسات التعليمية وكانت من الكثرة بحيث يصعب وجود مسجد أو مؤسسة تعليمية بدون مكتبة يرتادها الطلاب وسائر طبقات المجتمع»^(٣٧).

كما «قل أن توجد مدرسة في العراق وخراسان وسورية ومصر بدون مكتبة، وتناسب أهمية كل مكتبة مع إمكانيات المدرسة المالية»^(٣٨).

ويبدو من مطالعة الوثائق الإسلامية ان العراق كان أسبق البلاد الإسلامية ماعدا المنطقة الشرقية منها وخراسان، في انشاء المدارس وما يتبعها من خزائن الكتب. وهو ما يظهر جلياً من الجدول التالي^(٣٩):

في خراسان وماوراء النهر	قبل سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م
في العراق	قبل سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٤م
في الشام	قبل سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م
في مصر	قبل سنة ٥٣٢هـ / ١١٣٧م
في الحجاز	قبل سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م
في تونس	قبل سنة ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م
في المغرب	قبل سنة ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م
في الأندلس	قبل سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤١م

ويتبين من هذا البحث أنه كان في المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي وخراسان وماوراءالنهر، مدارس كبيرة ومهمة قبل تأسيس المدرسة النظامية ببغداد. وكانت سمرقند وبخارا ونيشابور من المراكز العلمية الإسلامية التي نشأ فيها علماء فحول. أما فيما يتعلق بالمراكز التي أسست لدراسة الحديث، فهناك «دارالحديث البسطامية» و «دارالسنة الصبغية» حيث كانت الدراسة فيهما قبل قرنين وثلث من تأسيس «دارالحديث النورية» بدمشق وقبل ثلاثة قرون من «دارالحديث الكاملية» بالقاهرة^(٤٠).

يقول الدكتور ناجي معروف في مقالته التحقيقية:

المكتبات. فأنشأوا المدارس والمكتبات النفيسة لها. وكان لعلاقة الخلفاء انفسهم بالإشتراك في مجالس العلم أن سعوا إلى كسب العلوم والفنون وجمع العلماء والأدباء والشعراء حولهم وتكريمهم^(٣٣).

يقول القلقشندي: يقال إن أعظم خزائن الكتب في الإسلام ثلاث خزائن. أحدها: خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة، ولا يقدم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دهمت المغول بغداد... ثم تكلم عن الخزانين الأخيرتين وهما خزانة الفاطميين بمصر وخزانة خلفاء بني أمية بالأندلس^(٣٤).

وقد أسس الخوارج نظام الملك عام ١٠٦٤م في نظامية بغداد خزانة كتب عظيمة للطلاب تناسب وذوق الأشاعرة والصوفية، وتصل ميزانيتها إلى مليون وخمسمائة وأربعين ألف دينار ذهبي، كما أسس المستنصر بالله العباسي في ١٢٣٣م مكتبة عظيمة للملل والنحل المختلفة في شرق بغداد تشتمل على مئات خزنة الكتب ومئات الألوف من الكتب المخطوطة لم يبق منها الآن واحد في المائة. وكان عدد خزائن الكتب الخاصة كبيراً جداً وهي تشبه في بعض النواحي الجمعيات الثقافية الإنجليزية الحديثة، إذ كان بإمكان المراجعين أن يلعبوا الشطرنج ويتناولوا المرطبات خارج المكتبات، وكان عدد المتنورين في تلك الفترة يصل إلى عدد سكان مدينة^(٣٥).

ونورد فيما يلي باختصار أسماء عدد من المكتبات الكبيرة في فترة الحضارة الإسلامية وعدد الكتب التي كانت فيها^(٣٦):

بيت الحكمة ببغداد	٤,٠٠٠,٠٠٠ مجلد
مكتبة شابور ببغداد	١٠,٠٠٠ كتاب
مكتبة الحكمة في قرطبة	٤٠٠,٠٠٠ كتاب
المكتبة الملكية الخاصة بالأسرة الملكية في القاهرة	١٠٠,٠٠٠ كتاب
مكتبة طرابلس في الشام	٣,٠٠٠,٠٠٠ كتاب
مكتبة مراغة	٤٠٠,٠٠٠ كتاب

ولابد لنا ونحن في صدد البحث عن أول مكتبة من القول: لما كانت المكتبة عادة وسيلة للتعليم، وقد بدأ التعليم في الإسلام

أول كتاب ومكتبة في تاريخ الإسلام

من الناحية التاريخية قبل سنة ٤٠٠ هـ. ولكن لم يتضح لنا التاريخ الدقيق لتأسيس كل مدرسة ولا يمكن الجزم بتاريخ انشائها. وعلى كل حال فإن الكاتب يعتقد نقلاً عن تاريخ بخارا أن اسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان المتوفى عام ٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م أسس مدرسة قبل ١٦٥ سنة من تأسيس النظامية ومدرسة أبي حنيفة، وكان يؤمها الطلاب لإتمام دراساتهم والقيام بالبحث والتحقيق، وكان للمكتبة موقوفات^(٤٧).

ويبدو أن العراق كانت أهم مركز ثقافي وتشتمل على أقدم المكتبات بعد المنطقة الشرقية من البلاد الإسلامية. كما كانت أكثر نشاطاً في البحوث العلمية وتقاطر الطلاب والأساتذة إليها للدراسة والتدريس، وقد كان الخلفاء العباسيون يشجعون العلماء والأدباء، وكان أكثرهم تشجيعاً لهم الخليفة العباسي الثاني المنصور الذي حكم بين سنتي ١٣٦ - ١٥٨ هـ ويملك خزانة كتب أيضاً^(٤٨).

وقد قسم جورجيس عواد في كتابه «خزائن الكتب القديمة في العراق» خزائن الكتب بالعراق في عهد الحضارة الإسلامية إلى خمسة أقسام:

القسم الأول: خزائن كتب الخلفاء في بغداد، ذكر فيها مكتبي المنصور وهارون الرشيد باسم خزانة الحكمة، وعدداً آخر من خزائن كتب الخلفاء.

القسم الثاني: خصّه بخزائن كتب الملوك والسلاطين، وأشار إلى مكتبة عضد الدولة الديلمي، ونور الدين أرسلان شاه وبدر الدين لؤلؤ في الموصل و...

القسم الثالث: ذكر فيه المكتبات العامة مثل مكتبي الحيدرية في النجف ودارالعلم. وخزانة كتب الوقف في الموصل. ودارالكتب في البصرة ودارالعلم ببغداد والتي تسمى مكتبة شابور أيضاً، ومكتبة المدرسة النظامية ومكتبة مشهد أبي حنيفة ومكتبة المدرسة المستنصرية ببغداد. وهذا القسم من أكثر الأقسام تفصيلاً.

القسم الرابع: عدّد فيه خزائن كتب الوزراء في العراق ومنها مكتبة يحيى البرمكي والوزير ابن شاه مردان في البصرة

«ونتيجة تحقيقاتي حول فنون الطبع والمخطوطات، أن بعض المؤرخين والمحققين لم يطلعوا على قسم عظيم من تاريخ البلاد الإسلامية، وهي المنطقة الشرقية من البلاد الإسلامية التي كانت معهداً عظيماً للدراسات العلمية الإسلامية ومركزاً مهماً للثقافة العربية الأصيلة. ونحن حتى الآن لم نطلع على المراكز العلمية التي كانت في بلاد فارس وخراسان وماوراءالنهر، وهي البلاد التي كانت تحت راية حكومة الخلفاء الأمويين والعباسيين لبضع قرون، وهي الآن جزء من حكومات إيران وأفغانستان وروسيا»^(٤٩).

وبناء على هذا ولما لم تكن المدارس عادة منفصلة عن المساجد^(٥٠) فقد كان تأسيسها في ماوراءالنهر وخراسان أقدم منها في سائر البلاد الإسلامية كما ينبغي أن يكون تأسيس المكتبات في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي أقدم منها في البلاد الإسلامية الأخرى أيضاً.

وقد ورد في ذكرى الأديب النيشابوري عن المكتبات في مدارس المنطقة الشرقية من العالم الإسلامي قوله:

«لما كانت خزائن الكتب في المدارس منهلاً لطلاب العلم الراغبين في البحث والدراسة، فقد كان مؤسسوا المدارس يوقفون كتباً كثيرة لها. وكانت خزائن الكتب هذه في مجال مختلف العلوم والفنون، وقد شيد لها أبنية خاصة وغرف متعددة وجعل لها خزنة ومشرفون ومراقبون. وتدل كثرة خزائن الكتب والمكتبات على اهتمام المسلمين والعلماء والطلبة بها»^(٥١).

ثم يتطرق الدكتور ناجي معروف إلى ذكر عدد من المكتبات الموجودة في المنطقة الشرقية، ويدّعي أن أكثرها كان قبل أو متزامناً مع تأسيس النظامية ببغداد وذات شهرة كافية^(٥٢).

وكان أبو حاتم البستي التميمي أحد الفقهاء والحفاظ وصاحب تأليف كثيرة، والمتوفى سنة ٣٥٤ هـ قد وقف كتبه وجمعها في بيت ووضع لها خازناً، وطلب منه أن يعطي الكتب برسم الأمانة دون أن يخرج شيء منها خارج المدرسة^(٥٣).

ومع ذلك ورغم أن كاتب مقالة «المدارس قبل النظامية» ادعى وجود مدارس في نيشابور وماوراءالنهر مع مكتباتها قبل النظامية، وذكر اسماء ٣٣ مدرسة منها^(٥٤)، غير أنه يعتبر أكثرها

ومحمد بن عبد الملك الزيات في سر من رأي وغيرها.
القسم الخامس: خزائن الكتب الخاصة والشخصية، ذكر فيه ما كان منذ القرن الثاني وحتى القرن الثامن.
إن ما ورد من عبارات في الحديث عن المكتبات الخاصة والعامة كل على حدة أو بشكل مطلق حول أوليات المكتبات في كتاب «خزائن الكتب القديمة في العراق» يجعل من الصعب إلى حد ما التصميم حول معرفة أول مكتبة فيها. كما لا يزال البحث جارياً حول مؤسس عدد من خزائن الكتب الكبيرة كدار الحكمة. وإن كانت تنسب عامة إلى هارون الرشيد^(٤٩).

ويبدو أن أول مكتبة من خزائن كتب الخلفاء كانت للمنصور الذي حكم بين عامي ١٣٦-١٥٨ هـ، وإن كان البعض يرون أن أقدم خزانة كتب في المنطقة الإسلامية كانت لخالد بن يزيد بن معاوية^(٥٠).

أما فيما يتعلق بالكتب العامة، يمكن أن نحصل من دراسة كتاب «خزائن الكتب القديمة في العراق» على النتائج التالية: المكتبة الحيدرية في النجف، وهي مكتبة مشهدة الإمام علي (ع) وهي من أقدم الآثار الإسلامية في العراق وأكثرها روعة وجلالاً، وفيه قبر الإمام علي (ع) وفي صحنه مكتبة انشئت منذ عهد بعيد^(٥١).

أما خزانة كتب المدرسة النظامية في بغداد. فقد أورد جورجيس عواد في كتابه جملة عنها تلفت النظر: يقول عن هذه المدرسة: «المدرسة النظامية من أشهر مدارس بغداد وأجلها شأنًا وأقدمها عهدًا»^(٥٢).

فإذا فرضنا أن تأسيس المكتبة كان متزامناً مع بناء المدرسة، فإن الغموض لا يزال باقياً، لأن نظام الملك فرغ من تأسيس مدرسته عام ٤٥٩ هـ، وهذا يتعارض مع مكتبة مشهدة أبي حنيفة الذي شيد في نفس السنة أيضاً.

وقد ذكر عن مدرسة أبي حنيفة: «وكان يتصل بهذا المشهدة مدرسة جلييلة الشأن والقدر، وهي أول مدرسة فتحت في العراق في العصر الإسلامي»^(٥٣).... وهذه هي المدرسة التي افتتحت عام ٤٥٩ هـ... وكانت في

هذه المدرسة خزانة كتب نفيسة موقوفة على طلبة العلم^(٥٤). والملاحظ أنه ورد في الحديث عن كلا المدرستين النظامية ومشهدة أبي حنيفة عبارتا «أقدم عهداً» أو «هي أول مدرسة فتحت في العراق» وذكر أن تأسيسهما كان في ٤٥٩ هـ. فهل تُرى هناك اختلاف في أشهر افتتاحهما.

وقد أوضح ابن الأثير هذا الاختلاف بدقة فقال: «وفي صفر منها وصل إلى بغداد شرف الملك أبوسعبد المستوفي وبنى على مشهدة أبي حنيفة مدرسة لأصحابه... وفيها في ذي القعدة فرغت عمارة المدرسة النظامية، وتقرر الدرس لها للشيخ أبي اسحق الشيرازي»^(٥٥).
فبناء على هذا فإن افتتاح مدرسة أبي حنيفة كان قبل عدة أشهر من النظامية.

أما فيما يتعلق بخزائن كتب الوزراء في العراق، يقول جورجيس عواد عن يحيى البرمكي:

«هو يحيى بن خالد البرمكي من أشهر رجال البرامكة. أوكل إليه المهدي تعليم هارون الرشيد، وبعد أن استلم هارون الخلافة، نال عنده منزلة رفيعة إلى أن غضب عليه والقي به في السجن، حتى توفي عام ١٩٠ هـ. ويبدو من تصفح أخبار يحيى أنه كان محباً للأدب ومكرماً للأدباء والشعراء، مقدماً عليهم أجزل العطايا والهبات، وكان يقول لولده: «اكتبوا احسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وتحذثوا بأحسن ما تحتفظون» ومن كان هذا ذوقه الأدبي وهذا سخاؤه، لا يعدم أن يحوز خزانة كتب جلييلة حافلة، ولقد ذكر الجاحظ خبراً نفسياً عن هذه الخزانة قال: حدثني موسى بن يحيى قال: ما كان في خزانة كتب يحيى البرمكي وفي بيته وبمدارسه كتاب إلا وله ثلاث نسخ»^(٥٦).

ولما كانت وفاة يحيى البرمكي في ١٩٠ هـ. فلا بد أن يكون تاريخ تأسيس مكتبته قبل عام ١٩٠ هـ. وعلى هذا وإذا أخذنا بنظر الاعتبار مطلق المكتبة وليس المكتبة العامة، فإن خزانة كتب يحيى البرمكي أقدم سائر المكتبات التي مر ذكرها. وفيما يتعلق بالمكتبات الشخصية، فرغم أن عددها كبير جداً، ولا يمكن احصاؤها، غير أن أبا عمر بن العلاء الذي

أول كتاب ومكتبة في تاريخ الإسلام

القول: فوالله لو كانت له ثلاث زوجات أخرى لكانت أهون عليّ من هذه الأوراق والمخطوطات. وقد أشارت السيدة «راث اشتلهون مكنسن» في كتابها «أساس خزائن الكتب الإسلامية» إلى أنه كان يملك أول مكتبة في الإسلام^(٥٩).

المصادر والهوامش:

- ١- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢.
- ٢- الذريعة، الشيخ آقا بزرك الطهراني، بحار الأنوار، ص ١٥٣.
- ٣- بحار الأنوار، ج ٢، ص ١٤٤.
- ٤- ن. م. ج ٢، ص ١٤٥.
- ٥- ن. م. ج ٢، ص ١٤٧.
- ٦- ن. م. ج ٢، ص ١٥٠.
- ٧- ن. م. ج ٢، ص ١٥١.
- ٨- ن. م. ج ٢، ص ١٥٢.
- ٩- ن. م. ج ٢، ص ١٥٢.
- ١٠- تاريخ قرآن كريم، محمد باقر حجتى.
- ١١- ن. م. ص ٢٠١ وما بعدهما.
- ١٢- حديث شريف.
- ١٣- عواد، جورجيس، خزائن الكتب القديمة في القرآن، ص ١٠٧ - ١٠٨.
- ١٤- زرّين كوب، عبدالحسين، تاريخ در ترازو، ص ٢٧.
- ١٥- كشف الظنون، حاجي خليفة، المقدمة، ص ٣٤.
- ١٦- تاريخ قرآن كريم، ص ٢٠٢.
- ١٧- القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ٢٨١.
- ١٨- مرآة الكتب، ثقة الإسلام التبريزي، المقدمة.
- ١٩- حديث الثقلين.
- ٢٠- مرآة الكتب، المقدمة.
- ٢١- بحار الأنوار، ج ١، باب العلم.
- ٢٢- مرآة الكتب، المقدمة.
- ٢٣- كشف الظنون، المقدمة.
- ٢٤- ن. م. ج ١، ص ٦٣٧.
- ٢٥- ن. م. المقدمة، ص ٣٤.
- ٢٦- مرآة الكتب، المقدمة.
- ٢٧- كشف الظنون، ص ٦٣٧.
- ٢٨- مرآة الكتب، المقدمة.
- ٢٩- ن. م. المقدمة.
- ٣٠- كيهان اندیشه، رقم ٣٠، ص ٥٤، مقالة «تاريخ تدوين حديث» لعلي أكبر غفاري.
- * ذكر كتاب الجامعة في:
- ١- اختيار رجال الكشي تحت عنوان «سورة ابن كليب» برقم ٢٤٥، ٢- في مجلدات الكافي من المجلد الأول إلى السابع وبناء على ما استخرجه السيد مرتضى

توفي في الكوفة عام ١٤٥ هـ. أقدم من غيره في اقتناء خزانة الكتب بناء على رواية جورجيس عواد وغيره، وترجمته كما يلي: هو زبان بن العلاء بن عمار العريان المازني البصري، كان امام أهل البصرة في النحو واللغة، وأحد القراء الثمانية، وقيل أنه إيراني، وقد ذكر ياقوت الحموي نسبه في بداية ترجمته، فقد كان يعيش في الكوفة بين عامي ٧٠ - ١٥٤ هـ^(٥٧).

ويذكر ياقوت عن مكتبته رواية تدل على أنه كان يملك خزانة كتب: «أبو عمرو اعلم الناس بالقراءات والعربية وایام العرب والشعر وكانت دفاتره ملء بيته إلى السقف، ثم تنسك فأحرقها»^(٥٨).

ويمكن ان نستنتج ممّا مرّ، أننا إن عضضنا الطرف عن تاريخ تأسيس أول مسجد ومعه أول مكتبة واللذان يلفهما الغموض ويحتاج ذلك إلى مزيد من البحث والتحقيق. فإن مكاتب المنطقة الشرقية وخراسان وماوراء النهر أكثر قدماً، وربما كانت مكتبة مدرسة أحمد بن أسد بن سامان والتي تعود إلى عام ٢٩٥ هـ. أول مكتبة.

ثم من الممكن أن تعتبر من الأوليات في العراق، مكتبتي أبي حنيفة والنظامية ببغداد لأنهما وصفتا به «أقدم عهداً» و «أول مدرسة فتحت في العراق».

أما فيما يتعلق بالمدرسة الحيدرية في النجف فليس لدينا تاريخ دقيق لتأسيسها، وقد وصفت بعبارة «منذ عهد بعيد» فقط.

وعن المكتبات الخاصة والشخصية. مما كان للعلماء والوزراء منها، فيمكن اعتبار مكتبة أبي عمرو المتوفى عام ١٥٤ هـ. أول مكتبة، ثم يمكن الحديث عن مكتبة يحيى البرمكي المتوفى عام ١٩٠ هـ. وإن نسبت أقدم مكتبة في المصادر الإسلامية في المنطقة الإسلامية إلى خالد بن يزيد بن معاوية.

وختاماً لا بد من ذكر ما ورد في كتاب «موضع النديم في معرفة الكتاب» لمحمد حسين الساكت، قال: لقد أسس مسلم بن شهاب محمد الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ. أول مكتبة في الإسلام، وجمع من النسخ والمخطوطات ما دعا زوجته إلى

اول كتاب ومكتبة في تاريخ الإسلام

- عسكري فقد ذكر في اكثر من ٢٩ حديثاً؛ ٣- في كتاب التهذيب في ٢١ حديثاً؛
 ٤- في صحيح البخاري في كتاب الدييات والعلم؛ ٥- في سنن ابن ماجه، ج ٢،
 الحديث رقم ٢٦٥٨؛ ٦- في مسند أحمد بن حنبل، المجلد الأول، ص ١٥١؛ ٧- في
 كتاب بصائر الدرجات، في الصفحات ١٤٤، ١٤٥، ١٦٢، ١٦٥.
 وكانت هذه الصحيفة عند الأئمة المعصومين عليهم السلام، كلُّ يورثها لمن
 بعده عند وفاته، وقد راها عدد من التابعين وجمع بعدهم أيضاً منهم:
 ١- ابوجحيفة وهب بن عبدالله السوائي، ٢- الحارث بن سويد أبو عائشة
 التيمي، ٣- قيس بن عباد، ٤- مالك بن الحارث النخعي الأشتر، ٥- ابوبصير
 ليث المرادي، ٦- محمد بن مسلم الثقفي، ٧- عبدالملك بن أعين الشيباني، ٨-
 زرارة بن أعين (كيهان اندیشه، رقم ٢٠، ص ٥٥-٥٨).
 ورعاية للاختصار فإننا لا نتطرق هنا إلى الحديث بالتفصيل عن كتاب
 الجامعة أو صحيفة علي عليه السلام. ولكن هذا الموضوع قد ورد بالتفصيل في
 احاديث وروايات أهل السنة والشيعة.
 ولا شك في أن الكتب التي دوت كانت اقدم بكثير من عام ١٥٥ هـ الذي
 نوه بعضهم اليه. يروي ابن شهر آشوب في كتاب معالم العلماء عن الشيخ المفيد
 قوله: «لقد صفت الإمامية منذ عهد أمير المؤمنين عليه السلام وحتى زمن الإمام
 العسكري (ع) اربعاً ثمة كتاب باسم الأصول» ولا بد من الإشارة الى ان تأليف
 الشيعة اكثر من هذا، ولكن اربعاً ثمة منها اعتبرت «أصلاً». ويطلق الأصل على
 بعض كتب الحديث، أو أن ما أصله مجرد قول المعصوم، وهو على خلاف
 «الكتاب» الذي هو قول المعصوم وقول صاحب الكتاب معاً. وقال بعضهم ان
 «الأصل» يعني الكتاب المعتبر الذي لا يؤخذ من كتاب آخر. ويقول آخرون:
 الأصل، نسخة فيها ما سمع من المعصوم عليه السلام. أو نقله احد عنه ولكنه
 ليس مبوباً. وخالياً من الاستدلال الاستنباط العقلي. أو الشرعي، وقيل ايضاً:
 الأصل: عنوان خاص لبعض كتب الحديث. ويقابله الكتاب وهو عنوان لمطلق
 التأليف واعم من الأصل (ظ: الذريعة، ج ٢، ص ١٢٥ - ١٣٤؛ كيهان اندیشه،
 رقم ١٤، ص ٤٨).
 ٣١- كتاب سليم بن قيس، ص ٨.
 ٣٢- مرآة الكتب، المقدمة.
 ٣٣- عواد، جورجيس، «خزائن الكتب القديمة في العراق، ص ١٠١.
 ٣٤- ن. م. ص ١٠٣ نقلاً عن صبح الأعشى، ١/ ٤٦٦.
 ٣٥- زندگي مسلمانان در قرون وسطی، آدام متز، ترجمه استخري، ص ٢١٣.
 ٣٦- جرجي زيدان، تاريخ تمدن اسلام، ترجمه على جواهر كلام، ص ٨- ٦٣٧.
 ٣٧- شلبي، تاريخ آموزش در اسلام، ترجمه محمد حسين ساکت، ص ١٥٢.
 ٣٨- ن. م. ص ١٥٨.
 ٣٩- ذکری ادیب النيشابوری، مقالة للدكتور ناجي معروف، ص ٢١٣.
 ٤٠- ن. م. ص ٢٠٨.
 ٤١- ن. م. ص ٢٠٦.
 ٤٢- ن. م. ص ٢١٦.
 ٤٣- ن. م. ص ٢٢٠.
 ٤٤- ن. م. ص ٢٢١.
 ٤٥- مجمع البلدان، ج ٢، ص ١٧٥.
 ٤٦- ذکری ادیب النيشابوری، ص ٢٢٢.